

العميد في الحجاز
صفحات مجهولة
من أيام طه حسين

الأستاذ عبدالفتاح أبو مدين



● في لقاء تاريخي غالٍ ، والتاريخ الحق الصادق ، التاريخ الذي ترك آثاراً في الحياة ونفوس البشرية قليل وعزيز . والتاريخ هو الأمة ، هو البطل فيها ، قليل الأقران ، يتميز بمواهب وخصائص وسما ت تجعله علماً ، لأن فيه تفوقاً من نبوغ أو شجاعة ، فيه خاصية تدل عليه ، لا تشيع في الكثيرين ، لأن الأفضاذ قلة في كل زمان ومكان ، وفي كل أمة كذلك ، فهم أعلام ، وقديماً وصفت شاعرتنا العربية الذائعة الصيت الخنساء أخاها صخرًا . . بقولها : «كأنه علم في رأسه نار» . الرجال قليل ، والنساء قليل كذلك ، والنادر المراد غالٍ وعزيز ، لأنه قيمة ، يحدها زمان ويحدها مكان ، لا تتجدد بسرعة وفي كل عصر ، ولا في كل مصر ، والشئ الغالي قليل ، ويصبح في بعض الأوقات نادراً . هكذا الحياة عبر التاريخ الطويل . ولست أريد أن أمضي في هذه المقدمة ، وإن كانت المناسبة تدعو إلى الإطالة فيها .

إنني حين فتحت عيني على القراءة كان في الساحة جيل العمالقة ، في مقدمتهم لطفي السيد وطه حسين وعباس العقاد وهيكل والزيات وتوفيق الحكيم وأمثالهم .

أقرأ مجلة الرسالة في أعدادها القديمة والجديدة ، وكنت أقرأ الكاتب المصري يوم تولى الدكتور طه رئاسة تحريرها ، وكنت أسمع طه حسين يتحدث من إذاعة صوت السودان ، فسحرتني وبهرتني ، كنت أحرص على سماعه في عهد مبكرٍ قبل سبع وثلاثين سنة ، وكان الراديو بالبطارية وهو أي الراديو قليل الانتشار . أعجبت بأسلوب طه السلس وببلاغته وعذوبة ألفاظه ، وذلاقة لسانه أيما إعجاب ، وكان من أمنياتي الغالية أن ألقاه ، وتحقيق الحلم ولله الحمد . فجاء الدكتور طه في شهر يناير من عام ١٩٥٥ رئيساً للجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ، جاء إلى الحجاز ، وكنت فرحتي وغبطتي بذلك

الخبر ، أقرؤه في صحفنا ، وازدادت فرحتي حين تلقيت بطاقة دعوة لحضور حفل افتتاح أعمال اللجنة الثقافية في فندق الكندرة بجدة ، في يوم السبت الخامس عشر من يناير بعد العصر ، فسعيت مبكراً قبل الكثيرين ، وأخذت مقعداً ليتلاءم مع قلة حيلتي ومكاني المتواضع في الحياة ، وعيوني لا تتحول عن هذا الرمز الذي أحببت وأعجبت به وبسحره البياني ، وروعة أدائه إذا تكلم وإذا كتب ، وكان الملك فهد يومئذ وزيراً للمعارف في المملكة العربية السعودية . ثم بدأ الحفل ، فتحدث وزير معارف الدولة المضيئة للمؤتمر ، وتبعه رؤساء وفود الدول العربية المشاركة ، وهي مصر وسورية والأردن ولبنان والمملكة العربية السعودية ، ووفد اليمن جاء بعد الافتتاح بيومين . وكل من وقف تحدث دقائق ، ثم يعلن أن خير من يقف في هذا المكان متحدثاً هو أستاذنا وأستاذ الجيل الدكتور طه حسين ، ثم كان آخر المتحدثين عميد الأدب العربي ، وبحسه المرهف ، ميل رقبته لتقاء الأمير ، الملك فهد ، مبتدياً بخلق وأدب الكبار قائلاً : سيدي صاحب السمو ، أرجو أن تتفضل مشكوراً فتقبل أصدق تحيتي وأعمق إخلاصي ، وأن تتفضل مشكوراً فترفع إجلالي الخالص الصادق العميق إلى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، ثم أعاد ميله رقبته في استقامة واتزان ، مخاطباً الوفود التي حوله والحفل كله . بدأ حديثه الرائع بقوله : « كان الفرنسيون في بعض أوقاتهم يتحدثون عن انتشار ثقافتهم في الأرض ، فيقول قائلهم : إن لكل مثقف وطنين ، أما أحدهما فوطنه الذي ولد فيه ونشأ ، وأما الآخر ففرنسا» . . التي تثقف فيها أو تلقى الثقافة عنها . وكنا نسمع هذا الكلام ، وكنا نرى فيه شيئاً من حق وكثيراً من سرف ، ولكن الذي أريد أن أقوله الآن هو الحق كل الحق ، لا نصيب لسرف فيه . . من قريب أو بعيد ، فلكل مسلم وطنان ، لا يستطيع أن يشك في ذلك شكاً قوياً أو ضعيفاً ، وطنه الذي نشأ فيه ، وهذا الوطن المقدس . . الذي أنشأ أمته وكون قلبه وعقله وذوقه وعواطفه جميعاً ، هذا الوطن المقدس الذي هداه إلى الهدى ، والذي يسره للخير ، والذي عرّفه نفسه ، وجعله عضواً صالحاً مصلحاً في هذا العالم الذي نعيش فيه .

وأعترف أيها السادة بأنني حين شرفني مجلس الجامعة العربية لاختياري مشاركاً في اللجنة الثقافية للجامعة ، ترددت في قبول هذا الشرف لأن فيه أعباء لا ينهض بها إلا أولو العزم ، ولكنني لم أكد أسمع أن الدورة ستعقد في هذا الوطن الكريم العزيز حتى أقبلت غير مترددٍ ولا محجم ، بل أقبلت يدفعني هذا الشوق الطبيعي ، الذي يمتلئ به قلوب المسلمين جميعاً ، مهما تكن أوطانهم ، ومهما تكن أطوارهم . فهذا الوطن العزيز الكريم وطن العروبة ووطن الإسلام ، لهذا الوطن أقدمت على قبول هذا الشرف ، وأنا أستعين الله على أن يتيح لي أن أنهض بأعبائه ، وهي أعباء ثقال لا شك في ثقلها .

ثم يمضي الدكتور العميد في هذا الحديث الممتع العذب ، الذي يأسرك وأنت تصغي إليه لا يصرفك عنه شيء ، ولا يشغلك عنه شاغل ، لأنه ينبع من معين سلسبيل ، من ثقافة عريضة وعقل واعٍ ، بأسلوب ساحر ، أليس من البيان لسحر ؟

● يقول العميد في كلمته تلك الجامعة المانعة : «إني أيها السادة أفهم الثقافة فهماً يجعلها شديدة العسر عليّ ، ويجعلها شديدة العسر على الذين أشرف بالعمل معهم مهما يكونوا ، فالثقافة عندي لا حد لها ، وهي لا وطن لها أيضاً ، وهي لا تنتهي عند غاية من أي قطر من أقطارها ، وهي متنوعة إلى أقصى ما يكون التنوع ، ولا حرج عليّ ولا جناح في أن أتصور الثقافة على هذا النحو ، فقد علمتنا الثقافة العربية هذا كله ، وعن العرب أخذنا هذا كله ، وقد أمرنا الإسلام بأن نتبصر في كل شيء ، وأن ننظر في كل شيء نظراً من يريد الفقه والعلم ، وأن لا ندع شيئاً نستطيع أن نعرفه إلا عرفناه ، وأن لا ندع علماً نعرفه إلا أذعننا وأفدنا به غيرنا من الناس .

على هذا النحو من الثقافة ، على هذا النحو الذي رسمه الإسلام للمسلمين أتصور الثقافة ، وأنا حين أتصور الثقافة على هذا النحو لا آخذها في يسر ولا في أناة ولا في لين ، وإنما آخذها في الجد كل الجد ، وفي الحزم كل الحزم ، ولا أبغض شيئاً كما أبغض التهاون في أمور الثقافة ، ولا أبغض شيئاً كما أبغض

التردد في خدمة الثقافة ، ومن أجل ذلك لا أرحم نفسي فحسب ، وإنما أرحم الذين يعملون معي في أي شأن من شؤون الثقافة ، لأنني أرهق نفسي وأرهق شركائي في العمل من أمرنا عسرا .

في ظني أن هذه الوثيقة التاريخية لم توثق إلا إذا كان في الدائرة الثقافية من الجامعة العربية . على كل حال أنا أردت أن أقدم هذه الوثيقة لهذه الجامعة الوفية البارة ، برجل وفي بار في محافظته ، فقد نشرت هذه الكلمة الرائعة في الصفحة الأولى من جريدة «البلاد السعودية» ، والصحافة اليوم لا تحفل بالأدب والأدباء ، وإنما ترى الثقافة شيئاً ثانوياً لا يعباؤه ولا يؤبه له ، أو هكذا أرى في عالمنا العربي كله . وهي تُعنى بالسياسة والسياسة ، والاقتصاد والمال وأهلها وما إليهما ، وتهمل ما عداها الإهمال كله ، كأن الثقافة دخيلة على الحياة ، على حين . . أن الصحف قامت على أكتاف الأدباء والمثقفين ، وكانوا أصحابها ورؤساء تحريرها ، ولكن الحياة تغيرت ، وحق لها أن تتغير ، لأن المفاهيم انقلبت وانعكست ، وازدادت سوءاً .

تحدث الدكتور طه في حفل الافتتاح ، فكان يتدفق في حديثه كأنه سيل أو نهر مناسب ، عذب ، رائع ، يخلب الأسماع والقلوب ، لا سيما حينما قال :

فإني أسعد الناس وأعظمهم غبطة بأن أشعر الآن بأنني أتحدث في بلاد العرب التي عاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وفي البلاد التي مر عليها وقت كان أهلها يقولون فيه ما أشد قرب السماء من الأرض ، ثم مر عليها وقت بعد وفاة النبي كان بعضهم يبكي لا لأن شخص محمد قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ، بل لأن خبر السماء قد انقطع عن هذه البلاد . كلمات تهز النفوس والقلوب والمشاعر .

أخذ العميد يتحدث أربعين دقيقة ، كأنه شلال دافق من ضياء ، لا يتوقف ولا يستعيد ما يقول إلا على النحو الذي تعود من تقديم وتأخير لبعض الكلمات ، وكم كانت غبطتي وفرحتي يومها ، إنه يوم لا ينسى بالقياس إليّ .

● وأقامت مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر بجدة حفل تكريم للوفود ،

تحدث فيه الأستاذ أمين الخولي رئيس الوفد المصري . ثم تحدث الأستاذ العميد ، فقال في مطلع حديثه : أيها السادة : منذ أن وطأت قدمي هذه الأرض ، أسمعكم تتحدثون عن رجل أكبر الظن أنني لا أعرفه ، نحن لسنا ضيفاً عليكم ، لقد أسرف خطيبكم البليغ ، وأسرف شاعركم النابغة في الثناء على شخصي ، ردوا أنفسكم إلى شيء من القصد ، وإن أردتم إلا أن نعيدها جذعة وأن نخاصمكم على هذه الأرض ، فثقوا بأننا مستعدون .

● وقد ألقى في هذا الحفل قصيدة للشاعر الأستاذ محمد حسن عواد ، جاء فيها :

إلى الدكتور طه حسين

التحايا مظاهرُ الإجلال
والمزايا مقوماتُ الرجال
والتلقي بكل ما يُشعر القلب بعد الخصال
خيرُ الخصال
من يُحمي الحجاز ؟
من يلزم الثغر المدوى ؟
من ههنا
من قبالة
من أتى من رمال رمسيس يسعى لرمال النبي بين الحلال
من أثارت أيامه الغرُ أياماً حلت بين غرة وحبال
من أقلت سفين مصر إلى شط الأمان سامياً كاهلال
كاتب الشرق
حامل المشعل الوضاء للجيل
جاحظ الأجيال
حارس الفكر واليراع من الغفلة والمسوخ
والبلى والزوال .
باعث العقل في افتقاد المعري
مبدع الفن بالأداء المثالي

ناشر العلم كالهواء وكالماء
 فاعرف في يابلادي للرجل الأمثل فضل النبوغ فضل النضال
 وليكن في رباك كالكعبة الغراء مهوى تقرب واتصال
 يا بلادي
 وأنت في النمط السامي سخاء
 وفي الذرا والتعالى
 كرمي كرمي العميد المدوي صوته الفذ
 لا أقول بمال
 كرميه برفعه فوق هام المجد
 فالمجد نفسه غال
 رجل كرمت لقاءه «أثينا»
 وهي عما يقول ذات انفصال
 وحبته البلاد شرقاً وغرباً
 حُبّها واعتزازها المتوالي
 يا بلادي وأنت في النمط السامي وفاء
 روته شم الجبال
 كرمي
 كرمي العميد فقد حل
 — على الحب —
 بين صحب وآل
 وأصيخي له إذا قال
 فالتكريم بالصفو
 هالة للمقال
 فسيبدو الحجي الذي كان «فولتير» يباهي به ضئيل الجمال
 وسيبدو الذكاء في رأي ديكارت هزيراً أو مُدليفاً للهزال
 حبذا هذه الحفاوة

في دار المعالي
مقر رب المعالي
الوزير الأديب^(١)
فاسلمي للحجى
وللأدب المنشور بين الورى انتشار الظلال . .
وأشعاً كما تشاء أن نورا
وأبقياً للمنى ، وللآمال .

والأستاذ الناقد الشاعر محمد حسن عواد رجل عقادي صرف ، ومع ذلك لم يخف إعجابه بالدكتور العميد ، فحياه بهذه القصيدة ، وكان العواد من لجنة الوفد السعودي في الدورة التاسعة لاجتماع اللجنة الثقافية .

● وفي بلادي كما في غيرها من الأدباء من ينتصر إلى طه حسين ، ومنهم من يتبع عباس العقاد ، ومنهم رافعيون ، وأتباع الأدب المهجري ، ومع كل ذلك فإنهم جميعاً يتفقون على الاعتراف بشخصية طه حسين المتميزة ، يُكبرونه ويحترمونه ويسمعون له ويحلقونه ، وبمناسبة قدوم الدكتور طه إلى الحجاز رحب به كل كاتب ، وعبر بمشاعر فياضة عن حبه وتقديره للرجل الرمز ، الرجل الحي الذي لا يُريح ولا يسترخ ، رغم تعدد الأنصار لأكثر من أديب مصري وغير مصري ، فقد فرضت شخصية طه حسين نفسها على الناس ، لسماحة الرجل وطلاوة أسلوبه ، وجلاء بيانه ، وسحر شخصيته ، وكونه رجلاً عالمياً ، نهض بالأدب نهضة واسعة ، بما وهبه الله من قدرة وشجاعة وتضحية .

كان إذن لمقدم طه حسين إلى الحجاز أصداء وأثر كبير وتطلع إليه ، فهو ليس رجلاً من عرض الناس ، ولكنه ذو خطر غير هين وغير يسير ، تحبه وإن اختلفت معه في الرأي ، لعل آراء طه القديمة في كتابه في الشعر الجاهلي عفى عليها الزمن ، وإذا بقى منها شيء ففي بعض النفوس ، ويكفي أن الرجل تراجع عما قال فيما يختص بالعقيدة ، وأصدر كتباً إسلامية تدل على اتجاه الرجل

(١) هو وزير المالية والاقتصاد الوطني الشيخ محمد سرور الصبان الذي اقيمت الحفلة بداره .

الإسلامي وتمسكه بعقيدته والذود عنها ، والأمر في هذا كله الى الله ، وهذه الوقفات تنصب على ادبه وحده .

● وأقام الأساتذة المصريون المدرسون في المملكة العربية السعودية من أزهريين ومنسوبي وزارة المعارف المصرية حفلاً للعميد ورفاقه من لجنة الثقافة في الجامعة العربية والوفود المشاركة في هذه الندوة ، وكان فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي يوم قدم الدكتور طه إلى الحجاز ضمن بعثة الأزهر التي تعمل في التدريس في كلية الشريعة بمكة المكرمة ، فهاذا كان موقف الشيخ الشعراوي من طه حسين ؟ أهو ضده . . امتداداً لخصومة الأزهر والأزهريين بين العميد وبينهم ، وكذلك تلك الزلة في «الشعر الجاهلي» أم ترى أن الشيخ الشعراوي احتفى بالعميد ورحب به مع زملائه . . من البعثة الأزهرية ، والبعثة التعليمية المصرية ؟ لقد كانت الحال إيجابية صرفة ، ولا أدل على ذلك من إلقاء الشيخ الشعراوي قصيدة جميلة في الترحيب بالدكتور طه حسين ، ولنا أن نقف على بعضها ، وهي قصيدة طويلة ، نشرت بالعدد «١٧٥٤» من جريدة البلاد السعودية حين كانت في مكة المكرمة يومئذ ، بتاريخ ٢١ يناير ١٩٥٥ م .

ومطلعها :

حي وفد النهى وركب الرجاء وتنظر يا شرق بعث العلاء

وعن الأستاذ العميد يقول الشيخ الشعراوي :

هو «طه» في خير كل قديم	وجديد على نبوغ سواء
وهو غربي فكر حلال	أزهري الحجي والاستقصاء
كرمّوه وكرموا العلم لما	كلّفوه صياغة الأبناء
«باعميد البيان» أنت زعيم	بالأمانات ، أريحي الأداء
وإذا القوس أعطيت من براها	فارتقب موقناً سديد الرماء
لك في العلم مبدأ «طحسني»	سار في العالمين مسرى ذكاء

يجعل العلم للريعية جمعا
فمن الغبن أن يُوفَّر قوت
لك أيدٍ على المعلم في مصـ
يا فريد الأسلوب قد صغته من
كلمات كأنهن الغواني
كم قديم جلوته فتبدى
بك عزت حكومة النقد حتى
ومن النقد فاض كل بيان
وجمال الإسلام في وعدك الحـ
«هامش السيرة» الحبيبة فيه
«ركب طه» حياك في بلد اللـ
وإذا العقل لم يُعَلِّل لشيء
ركب طه حيثك زمزم تسقي
لك في حفرها حديث شهـ
قل لطفه قلوب شعب سعود
قل لطفه آذان شعب سعود
عشقوا بالعقول والعشق بالعقـ
قم فبشر في الغرب بالدعوة الحـ
حسب طه من دهره عند مولا
سيدي إن لي إليك رجاء
انثروا العلم ما استطعتم سبيلا
يا عميد البيان لا تحرم الأز
يلتقي فيه مُحَدِّثٌ وقديم
كم سقيتم من نبعه فاذكروه
واصرفوا الناس عن مشار جدال

ء مشاعا كالماء بل والهواء
لجسوم والروح دون غذاء
ر أزاحت عنه عنيف العناء
نغم ساحر شجي الغناء
يترقرن في شفيف الكساء
رائعا في تواضع الكبرياء
رهبتها صناعة الإنشاء
ومن النقد غاص كل هراء
ق تجلى فيه جلال الفداء
تتغنى ساحة الأنبياء
ه جلال للكعبة الشفاء
فمن النص علة الأشياء
كل ضيف لله أروع ماء
وهو مُغْنِيكَ عن طويل الرشاء
خَفَقَتْ حَفَقَةً طروب الولاء
مرهفات للحن جد ظماء
ل يرى قصره على النبغاء
ق دعاء لله أي دعاء
ه إذا فاز واحد باهتداء
في الذي قد حملت من أعباء
فبه لا نذل للأعداء
هر عوناً بصائب الآراء
في جلاليهما أعزُّ التقاء
ذاك برُّ الأبناء بالآباء
في مزايا شكلية الأزياء

● في حفل الأساتذة المصريين لتكريم العميد ورفاقه والمشاركين في هذه الدورة الثقافية من الوفود العربية ، وقف الأستاذ العميد ليتحدث إلى مواطنيه بحضور الأمير فهد بن عبدالعزيز وزير المعارف يومئذ ، فماذا قال لهم . . وقد احتفلوا به في مهرجان كبير ، وحسبك بالأزهر ورجاله في الخطابة والارتجال ، انهم يركبون صهوة خيول خلقت للسباق والفوز في ميادينها ، وطه يدرك هذا جيداً ، حين كان طالباً بالجامع الأزهر ، قبل أن يصبح جامعة ، أعني في مساحات الدراسة والتدريس ؟

قال موجهاً حديثه للأمير : ولا تخف عليّ يا صاحب السمو ، فقد عودني المصريون وعودتهم أن يكون الأمر بيننا مختلفاً ، يحسنون إليّ وأعنف بهم ، ويكرموني ولا أخرج من أن أشق عليهم . ومعذرة إليك يا صاحب السمو ، فهم معشري وعشيرتي ، يلقوني وألقاهم ، ويكون بيني وبينهم خصومات ووافق ، يحسن بعضنا ببعض ، ويشق بعضنا على بعض ، ومجال القول بيننا في مصر متسع ، لا يتعرض للضيق ، أما بعد : فإني لم أفرغ بعد من عتاب الزملاء والمواطنين من المصريين ، فقد أكثروا واشتطوا وأسرفوا على أنفسهم وعلى الناس حتى ذكروني ببيتين قديمين أرجو أن يصدقا عليهم .

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسؤول

دعوا أخاكم هذا الضعيف وما قدم إليكم من خير قليل ، واصنعوا خيراً مما صنع ، وأخطر مما صنع ، وأريحوه من إطالة الشاء لأنها تجعله وتُشعره بأنه يسمع ما ليس له الحق فيه .

ويخاطب العميد في أدب الأمير فهد في هذا الحفل فيقول : معذرة إليك مرة أخرى ، فنحن المصريين قومٌ فينا من العرب خصال ، وأخشى أن تكون قد سبقت إلينا خصال من قوم سكنوا هذا البلد الأمين في عصر مضى ، وكانوا يُوصفون بالكبرياء ، وربما وُصفوا بالغرور أحياناً وهم آلُ خروم . أخشى أن

يكون شيء من ذلك قد مسّنا ، فنحن نتحدث بما فعل طه وما قال طه ، وما فعل فلان وما قال فلان من مواطنينا - والخيرُ كل الخير أن نرى ما يفعل غيرنا - وما فعل غيرنا وما يُقدّمون وما قدموا إلى الحضارة والعلم ، وإلى الشعوب من مكارم ومآثر لا يُقاس إليها بحالٍ من الأحوال شيء مما جهدنا فيه وبذلنا فيه أعمارنا . وهكذا يمضي العميد في هذا الحديث المانع إلى إخوانه ورفاقه من رجال التعليم المصريين ، الذين كرموه في مكة المكرمة ، وألقوا الخطب في الشئاء عليه ، من أزهريين ورجال تعليم عام ، ومعهم وفيهم فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ، الذي ألقى تلك القصيدة الرنانة التي اجتزت أبياتا منها ، كل هذا يُعطي صورة واضحة عن حفاوة هذه النخبة بهذا الطود الشامخ ، حفاوة تليق بالمحتفى به وبرجال العلم والتعليم .

● وأقام الشيخ محمد سرور الصبان ، وهو يومئذ شيخ الأدباء ووزير المالية والاقتصاد الوطني ، أقام حفلاً في داره ، دار السرور بجدة تكريماً للوفود المشاركة في المؤتمر ، وفي مقدمتهم الأستاذ العميد ، ومن خلال ذلك الحفل قال الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار موجهاً الحديث إلى العميد : لقد أعلنت أن الأدب قد انتقل من مصر إلى لبنان ، واللبنانيون ليس عندهم أدب ، وكان ذلك إخراجاً للمضيف ، لاسيما في حضور وفد وسفير لبنان ، لكن المفاجأة أن الدكتور طه ، وهو غير متوقع لشيء مما سمع ، حتى يستعد له ، ويتهيأ للرد عليه ، ولكن الذاكرة الخارقة . . لا تحتاج إلى استعداد ، ولا تأبه للمفاجآت ، ليس هو الرجل الذي خرج للطلبة المتظاهرين ، الذين ينادونه : اخرج يا أعمى ، هكذا بكل صفاقة وسوء أدب وخلق ، فمد إليهم عنقه قائلاً : الحمد لله الذي كف بصري حتى لا أرى وجوهكم الكالحة .

لم تُعجز المفاجأة الذاكرة المتقدمة ، المستحضرة جوابها دائماً ، لقد أسرع العميد ليرد في أدب نفس على الأستاذ أحمد عطار . . رداً مفحماً ، قال : أرجو ألا يصدق على صاحبنا قول الشاعر القديم :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا
أبني حنيفة إني إن أهجكم أدع اليمامة لا توارى أرنبا

● وفي المدينة المنورة ، حاول أصحاب جريدة المدينة يومئذ مع الدكتور طه أن يتحدث إليهم بحديث خاص لجريدتهم فلم يتكلم ، وحينما وصل إلى المطار ، التفت إليهم قائلاً :

كيف تريدونني أن أرفع صوتي في هذا البلد ، وقد نزل فيه قول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ . وسأله أصحاب الجريدة أنفسهم : كيف كنت تدعورك وأنت حول البيت الحرام وأمام قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فرد قائلاً : أعجب لقوم يتدخلون بين المرء وربّه .

لقد كانت تلك الأيام العشرة . التي قضاها الدكتور طه حسين حافلةً غاليةً رغم قصرها ، ولكن هذه المناسبات لا تقاس على طول الزمن وقصره ، وإنما تقاس على محصلتها ، وهذه المناسبات قل أن تتكرر .

● وكتب كاتبنا الكبير محمد حسين زيدان في جريدة البلاد يتحدث عن طه حسين ، رغم أن هذا الرجل رافعي ، ولكن ميوله الرافعية لم تمنعه من الحديث عن رجل عملاق أرغمت شخصيته أو فرضت نفسها فرضاً على حب الآخرين لها ، وإن كانوا يميلون إلى غيرها ، تلك هي قيمة الشخصية وميزاتها في التقدير والتكريم .

قال الزيدان عن الدكتور طه : إنه شق على نفسه وشق على الآخرين ، ولجَّ بالناس وألح عليهم ، شق على نفسه بالألم في سبيل المعرفة ، وشق على الناس ، يريد لهم الثقافة ، وسبيله أن يخرجهم ليقروا ما يكتب ، وألح عليهم بهذا الذي يكتب فيقرؤه أناس لينكروا ما قال ، ويقروا آخرون ليلتذوا بما يقول . فالألم في نفسه لذّة لها ، والألم الذي يرسله بهذه الآراء يؤلم به القارئ لذّة بهم ، فهو مثل حي لهذه الفلسفة التي تقول : إن الألم مصدر اللذة . من ينكر عليه أن الألم صاع منه هذا العلم الأشم ، والعملاق الضخم ؟ الألم بهذا العجز الذي هو فيه ، هو معنى القدرة التي صارت له ، صُهر بالألم ، وطُهر بالحب ، صهره الألم حتى صار جذوة تتقد لتحرق كثيراً مما تعارف عليه الناس ، حتى إذا جاءت عليه

نعمة الذكاء بهذه المعرفة ، تزخر بها نفسه ، جعلت منه رائداً يَهْدِي إلى حق مما هو بسبيله من الأدب والمعرفة ، والثقافات التي عني بها ودرسها كل الدرس . بهرته ثقافة اليونان والرومان واللاتين والغرب اليوم ، فحسبها كل شيء في حياة الإنسان ، حتى ألزمته دواعي الألم ، يرجع إلى هذه العربية ، كلغته ولغته ثقافته ، ولسان قومه ، نصب نفسه للدفاع عنها ، وجعل من أدها الأدب العالمي .

وشخصيته اليوم تكونت من عاملين اثنين : الألم والحب ، الألم صار به العالم ، والحب اتخذته الرائد . قست عليه دنياه فأحبها حتى عسفها ، وقست عليه الحياة فأحبها حتى طوعها بهذا الحب ، وقست عليه المعرفة ، فصاغ له الحب منها وسيلة من وسائل الدفاع عن الدين والقومية واللغة .

وينكر على الناس أن يُثْنُوا عليه ، وما درى أنهم تألموا كثيراً ، فمن لذة الألم في نفوسهم أن يتنفسوا معه فينسوا شيئاً من كرب النفس الكارب . إنه يتواضع لأنه لا يريد أن يتضع فيقبل كل شيء ، وأنه يريد أن يكون كبيراً فيكره أن يشأن التكبر .

يعرف هذا في نفسه ، ويعرفه الناس ، ولكنه لا يريد أن يفهم الناس أنه وحده ينبغي أن يخص بالفضل دون زملائه الذين حضروا معه ، فهو ينكر أن يسمع ثناءً يخصه وحده ، ويجلهم من أن يُجرحوا أو يخرجوا .

أحسب أن متابعة هذه الذكريات مع الرجل العملاق تطول وتطول ، ولكنها مائة ، حبيبة إلى النفوس المحبة للأدب والجمال عند أهله ، لقد كتب سكرتير تحرير جريدة البلاد السعودية يومئذ الأستاذ عبدالعزيز ساب في حديثه الأسبوعي ، كل خميس في التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٧٤ هـ كلمة ضافية عن عميد الأدب العربي ، أقتطف منها كلمات قصاراً قال : إننا سعداء بلقاء طه حسين ، وسيقضي بين ظهرانينا أياماً ، وسيلقى من الترحيب والتكريم ما هو له أهل ، ولكن هذا وحده لا يكفي بالنسبة للمعجبين بطه حسين . إنهم يريدون أن يجتمعوا به في مكان شعبي عام ، إنهم يريدون أن يستمعوا إليه في

محاضرة عامة ، يشترك فيها أكبر عدد من أدباء هذه البلاد ، إنهم يريدون أن يجلسوا إلى هذا الرجل الذي أحبوه أعظم ما يكون الحب ، والذي أعجبوا به أشد ما يكون الإعجاب ، يريدون أن يُنصتوا لصوته وقد خلبهم فيما يذيع في الإذاعات ، ويريدون أن يعيشوا معه لحظاتٍ في هذه الفرصة التي لا تسمح الأيام بها إلا نادرا .

● وكتب الأستاذ عبدالوهاب آشي من أدباء وشعراء مكة المكرمة مقالة في جريدة البلاد يوم السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٧٤ هـ جاء فيها : لقد كان هذا الأسبوع حقاً أسبوع العلم وتكريم رجاله ، فهذا الدكتور طه حسين . . مجرداً من كل لقب غير لقبه العلمي الرفيع ، يحول مكرماً في الحفلات والنوادي بجلاله العلمي ، وعظمته الفكرية ، ولسنا الآن بسبيل سَوْقِ عبارات التعريف أو الإطراء والثناء على هذا العالم الكبير ، فما من دار تؤوي قارئاً عربياً دون أن يكون لقلم عميد الأدب العربي وأسفاره فيها أثر أي أثر ، وما هزّ المحافل الأدبية والعلمية في هذا العصر بآرائه الحرة وتوجهاته الجريئة أديبٌ عربي مثله . ومهما اختلف حكم الناس فيه ، إنه لاشك ولا جدال فذ في جيله ، عظيم في أدبه وعلمه وفضله .

● والحديث يطول لو مضيت مع الأستاذ الآشي ، الذي استشهد ببعض مقاطع من خطاب العميد التاريخي الذي ألقاه يوم افتتاح الدورة التاسعة لمؤتمر اللجنة الثقافية ، عن بذل أقصى الجهد في سبيل العلم والثقافة وتنمية الحضارة الإنسانية ، وخدمة الإنسان من حيث هو إنسان ، فيقول العميد : إن الله يأمركم بنشر الإسلام في كل مكان ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ، ولا سبيل إلى نشر الإسلام حقاً إلا إذا عنيتم باللغة والعلم والثقافات على اختلافها .

● وكتب الأستاذ الشاعر عبدالعزيز الرفاعي في صحيفة البلاد السعودية نفسها في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٧٤ هـ يقول : إنها مناسبة مقدم الدكتور العميد طه حسين إلى هذه البلاد ، هي التي حفرتني إلى الرجوع إلى قصاصات كنت أحتفظ بها من الصحف المصرية ، ضمت معارك قلمية حامية ، دارت حول الأدب ، وهل هو للحياة أو هو للفن

خالصاً ؟ وكان من أبطال المعركة الدكتور العميد . والقراء يذكرون أن هذا الموضوع كثيراً ما شغل الأذهان والأقلام ، وخاصة في الآونة الأخيرة .

ولعل القراء همُّهم كما أهمني أن يقفوا على رأي الدكتور طه حسين في «المشكلة» إنني أنقل إليهم فقراتٍ من إحدى تلك القصصات ، من مقال نشرته له صحيفة الجمهورية في عددها الصادر في ٥ مارس ١٩٥٤ «أما أنا فقد شهد الله أنني أحسست الجوع فلم يشغلني عما يمتّع القلب والذوق والعقل ، وأحسست الشعب ، فلم يشغل عن جوع الجائعين وحاجة المحتاجين ، وأنا من أجل ذلك أحب الأدب . . الذي يصوّر المواقف والوقائع الاجتماعية ، إذا أحسن تصويرها ، وأحب الأدب الذي يصور حياة الروح وطبيعة الأرض والسماء والجو والبحر ، إذا أحسن تصويرها أيضاً ، ولا عليّ أن أكون من المدرسة القديمة أو المدرسة الجديدة كله كلام يقال ، ولم يخذعني الكلام عن حقائق الأشياء» .

● وأنشأ الدكتور الطبيب حسن نصيف زجلا عنوانه : بالعلم صحيح نبني الوحدة . بدأه بقوله :

شرفتوا وقلنا مرحبتين
حيثكم جدة والحرمين
شرفتوا وشرف «طه حسين» مقدم محمود
عشنا وإياه في «هامش السيرة»
ونعمنا معاه ونعم الجيرة
ومع «الأيام» قصة مثيرة
لصاحبها خلود
ياما «الكروان» غنى وحلق
«لمعذب في الأرض» انحرق
«والوعد الحق» أهو تحقق
كل مثقف فضله شامله
أعطى التعليم لي سائله
مافي عربي ينسى فضائله
وخير والممدود

إلى أن يقول :

بالعلم صحيح نبي الوحدة

بالعلم تشيع بيننا مودة

بالعلم ماهو البر وباجنده

ونغضي ونحافظ على ديننا

ونبني أوطانا بيميننا

الغرب ماهو أحسن منا

لازم تتوحد ثقافتنا

لازم تتقوى مناهجنا

لازم تتماثل مدارسنا

منهج وبنود

● وفي المديرية العامة للإذاعة . . يستقبل الأستاذ ابراهيم فوده ، مديرها العام ضيفه الدكتور طه ورفاقه . . بحفاوة بالغة ، ثم قال : ماوقفت مثل هذا الموقف قط . . إلا تذكرت دعوة أبينا ابراهيم ربه ﴿ واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرو ﴾ وما أروع التعبير بأفئدة من الناس في هذا الموضع الكريم .

ثم قال مدير الإذاعة العام : لذلك فإنه لم يمض عامان أو أقل من عامين . . بإذن الله ، إلا وأنتم ترون في هذه البلاد محطة كبرى ينطلق منها صوت مكة المكرمة ، فيؤدي هذا الواجب كما تريدون أن يؤديه .

● ووقف العميد ليرد التحية بأحسن منها ، حين قال : « كم أحب أن أعلم . . قبل أن أشكر للأستاذ الخطيب ، أيسمعي هؤلاء السادة وحدهم . . أم يسمعي معهم قوم آخرون ، فقد بلونا الصحافة والإذاعة ، وعرفنا من مكرهما ما عرفنا ، وما خفي منه كان أعظم . ومهما يكن من شيء . . فلست أخرج مطلقاً من شيء أقوله الآن ، لأني لن أقول إلا حقاً ، وأعدكم بأني سألتجنب السرف . . ما استطعت إلى تجنبه سيلاً . ثم قال : « فلتثق هذه البلاد الكريمة بأنها إنما تستقبل منكم رسلاً ينبئون العالم العربي . . وغير العالم العربي أيضاً ،

بأنها بلاد تستأنف حياة جديدة ، وهي في طريقها إلى أن تسترد مجدها القديم وحياتها تلك . . التي تمتعنا كلما نظرنا في أدبنا العربي القديم ، حين كانت هذه البلاد . . لا مشرق النور فحسب ، ولكنها مصدر الشعور الذكي والعاطفة القوية ، والذوق المهذب ، والسخاء الذي يخرج الطباع من غلظتها الأولى . . إلى مقامها الذي تريده لها الحضارة ، ولاسيما الحضارة التي يهذبها الدين ، وينفي عنها الخبث .

ما أشد شوقي ، وما أشد شوقكم فيما أحقق ، إلى أن نرى هذه البلاد كما عرفناها من كتب الأدب ، وإلى أن نرى شعراءها . . يحيون في المدينة ومكة ، وفي نجد والحجاز ، كما كانوا يحيون ، ويعثون من الحياة إلى أعماق القرون ، مثلما كانوا يعثون» . ثم قال العميد في ختام كلمته الرائعة الجامعة : لو أردت أن أحدثكم بما يضطرب في نفسي من العواطف والخواطر ، لحولت زيارتكم هذه . . من زيارة للإذاعة السعودية . . إلى مجلس لتذكر التاريخ وأحداثه ، والاعتبار بما كان ، والأمل فيما يكون . وهذا كله لا تحتاجون إليه . . لأنكم تحملونه بين جنوبكم حيث تسكنون ، فهبوا إليّ فضلاً من عفوكم وأذنوا لي في أن أنوب عنكم في شكر هذه الهيئة الكريمة . . على ما قدمت إلينا من خير حين استقبلتنا هذا الاستقبال الكبير وحين أشعرتنا هذا الشعور القوي . . بالأمل في حياة سعيدة ، موفقة موقورة لهذا الوطن العزيز علينا جميعاً ، الأثير في قلوبنا جميعاً» .

وبعد

● فهذا هو العميد في الحجاز ، يتفياً وصحبه ظلاله ونفحاته العطرة ، بين الحرمين الشريفين ، من خلال البوابة المفضية إليهما ، الشجر الباسم - جدة - ، البلد الجميل ، لأن من فيه جميل ، وينبغي أن يكون الإنسان كذلك ليرى الوجود جميلاً .

ولم أُرِدْ أن أمضي في هذا الحديث . . لألم بعض الجوانب في لقاءات العميد في جدة (مثلاً) ، فليس ما أكتبه حديثاً صحافياً ، وإنما هو تصوير لتلك الصفحات المجهولة ، وقل إن شئت والمعلومة لنا ، وقد مضى عليها سبعة وثلاثون خريفاً ، ولعلها نسيت من الأذهان ، أو نسيت معالمها ، فأردت أن أجدها . . بهذا التسجيل العفوي . . من خلال متابعة لها في مصادرها التي عُنِيَتْ بها في وقتها ، ثم طوتها الأيام ، وما أكثر ما تطوي الأيام والليالي فينسى ، لأن اختلافهما ينسي ، كما يقول أمير الشعراء يرحمه الله .

